



استيقظت مذعورًا فأدركت فورًا أنني قد حلمتُ مرارًا على شاكلة هذا الحلم فوضعتُ يدي على خدي الأيسر فلمسته مرخيًا، فتحسستُ الأيمن فوجدته طبيعيًا؛ أما وجنتي اليسرى وكأنيها كلها هابطة، حتى عيني اليسرى تكاد لا تفتح... أما المادة التي قرأتها قبل نحو أسبوعين عن علامات العصب السَّابع بدأت تتلوى في ذهني. فقفزت إلى المرأة فطمأنتني وأرنتني وجهي على أحسن ما يُرجى. وأرنتني أيضا الطبله مزركشة الألوان -كنت قد اقتنيتها من سوق "الرايش" قبل أربعين عامًا- التي جهزت عليها من ليلة البارحة بنطال "كوردروي" عنابي اللون وقميص ذات مربعات زرقاء اشتريتهما من سوق الأحد في لندن قبل أكثر من ثلاثين عامًا. وبجانب الطبله زوج حذاء باولينغ كنت قد نسيتَه في قدمي بعد مغادرة قاعة "الباولينغ" في حين من الزمن كنت غارقًا في هذه اللعبة. كويث القميص والبنطال وأنزلتهما غاية في الترتيب على الطبله ووضعت الجوارب في حذاء "الباولينغ" بعد أن غادرني شريك العجوز ليلة أمس وسحقتني في لعبة المحبوسة... فمن يرى أحجاري السوداء تعتلي محكمة على غالبية أحجاره البيضاء كان لُدهش كيف أتى بالدو شيش وأطبق على حجري المفتوح الوحيد في خانة الخشب.

أمر مألوف أن أحلم بعد ليلة بطولها قضيتها في لعبة المحبوسة... أن أحلم بحجارة زهر يفوق عدد مسطحاتها الستة، كبيرة وصغيرة، وخانات الطاولة ما بعد الخشب، وتقنيات عبقرية في رمي الزهر تستجيب لحظي وتعلن انتصاري، وشريك العجوز الذي يأتيني كل يوم وكل ليلة ليلا عيني حظه حتى يموت في قعر الطاولة...

هذا ما أتاني إلى الدعر... تبددت كل معالم الدعر بعد خمس دقائق من استفاقتي في هذا الصباح المشرق.. فاليوم عيد ميلاد أناناستي- أي ابنتي- لأنني من عشاق الأناناس، تلك الفاكهة التي تمزج بين الحلاوة والحموضة والرطوبة. لا أقصد عيد مولدها.. إنه عيد اختيارها. اليوم تمام الساعة الخامسة مساء سيحضر مخرجون ومبدعون من أطراف العالم إلى معهد الفنون المسرحية الذي تتعلم فيه لينتقوا أجمل المواهب لمشروع عالمي بين المسرح والسينما.

سيارتي لم تسر منذ أكثر من شهر؛ وعدني كهربائي السيارات منذ البارحة أن يأتي اليوم صباحًا ليصلح الانقطاع. هاتفه ما زال مغلقًا، سيعرقل ذهابي. أناناستي تنتظرنني على نار؛ ربما ستكون ازدحامات كبيرة في الطريق إلى العاصمة. في أي وضع ستكون ابنتي الآن قبل احتفال المونولوجات؟ مراجعات عاصفة. أنا أعرف جيدًا ما يتلعلع في داخلها الآن:



خوف؟ ما أجمل هذا الخوف! أناناستي تشبهني أنا تمامًا. لم تشبه أمها قط -أقصد طليقتي- عليّ ألا أسرد لكم موضوع الطلاق. فهو منسيّ بالتمام والكمال... المهم أنني طلقها بعد زواج لم يدم سنتين كانت ثمرته الوحيدة: "أناناستي" الوحيدة الشهيّة. حتّى أنّها أجمل مني... شعرها المموج الكثيف المنتشر، عيناها البرّاقتان... وكل شيء... ذلك يفتح لي ألبوم الذكريات. أناناستي ولم تكمل بعد عامها الثالث آثرت البقاء معي، في منزلي، أكثر أيام الأسبوع؛ كم أغاظ ذلك أمها. كانت أناناستي الشقيّة ترافقني إلى الطبيعة الوعرية، تسبح في الوعر. تقفز عن شجرة الخروب؛ تقطف لي وردة تخبئها في ظهري؛ تغمض لي عينيّ؛ تقفز عليّ؛ تدبّ تزحف على الرجلين والقدمين؛ تهرب مني، تركض، تنادينني من بعيد، تحاكيني، تحاورني بالفطرة... وأنا منسجم معها لأنني هكذا رأيتها... منسجم أنا كالأطفال؛ كلّ مّا يتأرجح على غصن ويحاور الآخر؛ والطبيعة كلّها تناديننا وتستجيب لنا. حتّى أنني لم أتردد أن أعلمها ما تعلّمت من أربعين عامًا. هي تصغي بشغف لقصص تشيخوف وكافكا. وأيضًا لمونولوجات وديالوجات كنت قد أنتجتها أنا منذ زمن. لم ألحظ هذا وحدي فحسب... بل شاهدت كل من شاهدها، سنة بعد سنة، في الشارع، في الدكان، في المناسبات، كل من يلحظها، كان ينخطف بسحرها وتألّفها ومشيتها ورنين صوتها وانبعاث جاذبيتها. لم أبخل عليها بشيء. زوّدتها بكل معلومة وتفصيل عن المسرح والسينما والفنون. وقد أفرغت لها تجربتي القديمة عن حالة الممثل ونفسيته المتغيرة بين العلوّ والهبوط والاستكانة والقلق... وأخذتها معي إلى عكا القديمة حيث الباب الخشبي الكبير... فأفضيت لها بكل أسراري... لا أستطيع أن أخفي عنها شيئًا، حتى سألتني ما هذا الباب؟ كنت مأزًا من هنا، في أزقة عكا القديمة، قاصدًا الميناء فرأيت نفسي أدخل من هذا الباب، باب مسرح "اللاز"، صدفة.. لا أعرف إذا كنت سأسميها صدفة. فهذه الصدفة من عشقني نفسي كما يعشق النجار خشبته. أنا عشقت نفسي وكلهم عشقوني.. وحتّى بعد ذلك في نفس معهد العاصمة الذي أرسلت أناناستي إليه، قال لي المعلم حينها بأنني سأصبح نجم العاصمة.

بعد لحظات صمت طويلة أمام الباب الخشبيّ الذي يفضي الآن على قفر مهجور، رأت أناناستي علامات الدّبول والإرياد على وجهي فسألتني وهي تدير بذراعها حول ظهري وكأنها تقطع أي شيء من كل شيء: "حقًا يا أبي، لماذا لم تكمل...؟".

السّاعة تشير إلى العاشرة، كهربائي السيارات لم يأت بعد؛ قال إنه سيصلح الإنقطاع في أقل من عشر دقائق؛ لم يزل قليلًا من الوقت. بدأت بتجارب التّصفيق؛ كيف عليّ أن أصقّق بأي رتم وبأية حرارة وأنا أشاهد الحكّام المبدعين



ينظرون إلى أناناستي المتوهجة سطوعًا على خشبة المسرح، بلهف وشبق خالص؟ ثم يرددون اسمها دون شك على الملأ... برافو... برافو... سيفف الجميع مصفيين ووحده تصفيقي سيكون على رتم وإيقاع آخر. أتتني فكرة أن أدرب كفي يدي على التصفيق الحار.. أزحت ملابسني عن الطبلية المزركشة الألوان، وشرعت أضرب أناملي على طارة الطبلية بين الدوم والثك. لم تكن عملية سهلة. فلم أحرك أصابعي على هذه الطبلية منذ زمن طويل وطاراة الطبلية أصبحت مثل تنكة بالية.

أناناستي تسألني دائما لماذا لم أصبح ضابط إيقاع؟ وكم أنا مفتون بكشف أسراري لها. اشتريت هذه الطبلية في سن الحادية عشرة من سوق الجمعة في القرية دون أن أبلغ أبي وأمي، بعد فترة طويلة قضيتها أضبط إيقاعي على ظهر الغسالة والبراد والطاولات. وبعد اقتناء الطبلية وتأكدني من مهارتي وموهبتي، اشتد إصراري أمام أهلي على أن أشارك في حلقة خاصة من برنامج هواة للأطفال. وحين تقرر موعد هذه الحلقة وأوشك أبي وأمي أن يأخذاني على مضض إلى مكان الاحتفال، شرعت في الصراخ والعياط الحار من ألم أصاب أصابعي سيحيل عني العزف على الطبلية. أبي وأمي لم يصدقا صراخي لكنهما أدخلاني غرفتي وانصرفا.

لا يهمني أي شيء الآن سوى أناناستي. قلت لنفسي إن لم يأت الكهربائي بعد ساعة كما وعدني سأسافر بالمواصلات العامة. لبست البنطلون الكوردروي العنابي والقميص ذات المربعات الزرقاء ودستت تحته شالاً حريرياً رقيقاً أخضر. تفاجئت بزيارة صديقي العجوز لي الآن... علمتُ منه أمس أنه سيسافر اليوم مع زوجته وأبنائه وأحفاده إلى ابنه في هنغاريا لإتمام حفل تخرجه. بعد أن دُهِشت من مجيئه سألته: " لم تسافروا إلى هنغاريا؟! " أجابني متهكماً " كلهم سافروا.. ومن يلاعيني حظي في هنغاريا؟ " قلت له إن لدي التزام مهم ولن أَلعب معه المحبوسة اليوم. جلس أمام طاولة البلاستيك المتحركة وفتح طاولة المحبوسة وبدأ يصف أحجاره البيضاء وقال واثقاً " سنلعب جولة واحدة فقط وبعدها اذهب... " اعتدنا كل يوم أن نلعب ثلاث جولات على حد أدنى. هو من علمني هذا اللعبة منذ زمن حتى أصبحت متمرساً جداً. نلعب كلانا بحرفية بالغة وسرعة اندفاعية، ننتظر حطنا ونستقبله بهذه السرعة، حسناً كان أم سيئاً. وفي كل جولة يضع كل واحد ورقة الخمسين مستورة تحت الطاولة كرهن يجنيه الرّاجح بعد نهاية الجولة. جولة واحدة لن تستغرق أكثر من عشر دقائق. ألقىت بحجري الرّهر إلى سطح الطاولة بصلافة وقوة وكنت قد استحثته أن يلعب على عجلة أكبر. " أوب!. دو بيش " فوضعت لتوي حجري الأسود حابساً حجره الأبيض في خانة "البك". وذلك يحسم الجولة



لصالحي. في غضون ذلك أمسك هو حجرِي الزَّهر وخبَّأهما في يده وقال صارحًا " أتاك بيش جهار وليس دو بيش " بعد مفاوضات صراخية أقرّ هو أن نلغي الجولة ونبدأ بجديدة... رفضتُ كلَّ الرِّفض وأعلنت له أنّ الجولة قد حُسمت. فرفعت ظهر الطاولة وسحبْتُ ورقتي الخمسين ودسستها في جيبِي. نفض هو الطاولة بأحجارها فوقعت أرضًا. وهبَّ صارحًا يمطرني بالشُّنائم ويقول إنني أكبر سارق في التَّاريخ. طرده من بيتي وألقيت بالطاولة من نافذة بيتي في الطَّابق الثَّالث. وصرخت له منها " لن ألعب معك بعد الآن".

وعلى هذه الإيقاعات الصَّارخة وجدت نفسي في محطة القطار متَّجِّهًا نحو العاصمة.

ستكون أناناستي الآن وراء الكواليس؛ اخترتُ لها مونولوج عظيمًا. كم تماهت معه حين ألقته أمامي وكأنَّه خُلِق لها وحدها. لن تهيبَّ من أي جمهور؛ لكنها ستبقى ممتعضة من تلكُّني وتقايسي. كان عليّ أن أصل قبل الخامسة بكثير وأن أدخل إلى جانبها في الكواليس. لن يمنعي أحد من الدخول... كلُّهم يعرفونني هناك... هناك تعلّمت قبل أربعين سنة. استصعب الإفضاء بكل مشاعري... عشقني الطُّلاب والطَّالبات والمعلِّمون والمعلِّمات ورئيس المعهد. كانوا ينتظرون كلُّهم عملي القادم.. تقدّمت إليّ زميلة لي ذات مرّة بعد أن أتممت مونولوجي أمام الصَّف وصقّوا لي بحرارة بالغة... وقالت: " أنا على استعداد أن أشتري بطاقة باهظة جدًّا مقابل أن أشاهد عرضًا لك".. كلِّما دخلت باب المعهد تأتي زُمر من كلِّ الأجاه، شابَّات وشبَّان، ليعانقوني ويغرقوني بالقبل. والمعلِّم القدير جوني أعلن أمام الجميع "هذا هو نجم العاصمة المستقبلي"... ومرّة واحدة فقط ألقىت مونولوجي أمام الصَّف وصقّوا لي تصفيقًا مزيجًا شعرتُ أنّ حضوري لم يطلب لهم... كآبة شديدة صدمتني... حملت أمتعتي وأخذت أوّل قطار إلى القرية.

وصلت بوابة المعهد وتأكّدت أنني متأخر عشر دقائق عن الخامسة. بدأت أركض وألهت نحو القاعة الكبيرة؛ لم أقصد الباب الرِّئيسي للقاعة، إمَّا ذلك الذي يودّي إلى خشبة المسرح والكواليس. منعتي الحارس من الدّخول، فقلت له إن ابنتي مشتركة في العرض؛ فمنعني أيضًا. فأجبتُه بنغمة أعلى "هل تعرف الأستاذ جوني؟ لو سمحت ناد لي الأستاذ جوني... هو يعرفني منذ أربعين عامًا" لم يأخذ ولم يعطِ إمَّا منعتي بحزم أكبر. توجّهت إلى باب القاعة الرِّئيسي حيث يدخل الجمهور، وجدت حارسًا آخر فمنعني أيضًا من الدخول. سمح لي فقط أن أقف بجانبه؛ ألصقت أذني في الباب وكأني أتأبّطه. سمعت مونولوج يلقيه شاب ضخم الصوت. سألتُ الحارس "هل تعرف الأستاذ جوني؟"



“جونبي؟.. ربما يوجد هنا عامل نظافة اسمه جونبي”، “لا.. لا.. جونبي معلّم مسرح قدير علّمني قبل أربعين عامًا وما زال يعلّم ابنتي حتّى الآن”؛

” قبل أربعين عامًا؟ أظنّ أنّه مات”. أسندتُ مرّة أخرى أذني إلى الباب. لم يكن صوت أناناستي.

انتهى العرض؛ فهبيت مسرّعًا نحو باب الكواليس؛ رأيت الممثّلين خارجين من الباب. اصطدمت بفتاة: “هل تعرفين أناناستي؟”، “من من؟”، “أقصد ابنتي... رنين...”، “آه، أنت أبوها؟... هي من ابتداء العرض وألقت...”، “أين هي الآن؟”، “ألقت وغادرت...”، “كيف كان أدائها؟ متى ستظهر النتيجة؟” شاب وسيم احتضن الفتاة من الخلف بقوة جريئة مفاجئة وأخذ يهنئها على أدائها الساحر ويقبلها بلهف وهما يضحكان بصراخ في منتهى العفوية.

اتصلت بأناناستي أكثر من عشر مرات لحظة خروجي من المعهد حتى وصولي القرية؛ بعثت لها عشرات الرسائل؛ أناناستي لا تردّ ولا تجيب؛ كئيبة هي الآن. متحقّقة أنا من كلّ شعور يراودها. أريد أن أسمع صوتها؛ ربّما النّصّ الذي قدّمته لها كهدية كان جادًا أو صلبًا أكثر من المألوف. هل وقعت في أوّل مطبّ لها؟ عندما أوصلتها في اليوم الأوّل من السّنة الأولى إلى باب المعهد واصلتُ معانقتي لها إلى أكثر من خمسة عشر دقيقة. وظللت أودّعها وأنا ألوّح لها بيدي كأنّها علم أحمر كذلك الذي يُلوّح به العشاق في محطات القطار، استمررت على هذا النّحو حتّى غابت أناناستي عني. كيف أتواصل معها؟ يومين لم أنم. وأنا قد قطعْتُ كلّ علاقة مع أمها. ليست لي وسيلة أخرى للتّواصل سوى هاتفها. أتمنى أن أسمع عتاباتها. لتوبّخني على تأخيري؛ فلنّفعل ما تشاء. انتشر سعالي في منزلي؛ تمّيت أن تصيبي نوبة سعال؛ جاهدت نفسي على إيقاع سعال متعاقب؛ سجّلتُ صوت سعالي الصّاحب المتتالي بواسطة رسالة صوتية وأرسلتها لأناناستي. مرّت خمسة عشر ساعة وأناناستي لم تردّ جوابًا لرسالتي المرضية. أنا أعرف جيّدًا أنّها في حزن أمّها الشّامته... ستقول لها أشياء كثيرة عني؛ ستنصحها أن تبدأ من جديد.. أن تدرس أيّ شيء، لتكون طبيبة، معلّمة، مهندسة، عاملة أظافر... على أن تكون ممثلة.

كان لا بدّ أن أخبركم بكذبتني... وهذا سر آخر أفضي به إليكم... وهو كذبًا قلتُ بداية إنّي أنا من طلق من كانت زوجتي... ولكن حقيقة هي من طلقني. كانت دومًا، خلال زواجنا القصير، ترعيني بنظراتها... كنت أفهم جيّدًا، لكنني أغضّ بصري وكأنني لا أفهم. كان لي أمل جديد بتوافق جديد حتّى جاءت جملتها الحاسمة والتي لم تكن أية كلمة بيننا



بعدها: " لا أستطيع العيش مع زوج فاشل".

سمعت باب منزلي يُدقُّ؛ فتحتُ الباب؛ رأيت صديقي العجوز متأبطاً هديتين؛ عانقني بشدّة غير متوقّعة؛ شرع يفتح الهدية الأولى بتلّهف وضحكة ودبعة وعينين منخفضتين... كانت طاولة محبوسة مزركشة الألوان.

والهدية الثانية فتحتها وهو يداعب لسانه... كانت صينيّة كنافة شهية.

الكاتب: جورج جريس